المحور الثاني: سياقات النص القرآني/ السياق السببي(1)(أسباب النزول):

لقد صار من المعلوم عند المسلمين، بل عند الناس أجمعين أن القرآن قد نزل مفرقا طيلة ثلاث وعشرين سنة تقريبا وفق الحالات والمناسبات ومواقع النزول، ليؤكد مرات كثيرة أنه جاء ليعالج مشاكل البشرية قاطبة، وهو ما جعل مفسّري القرآن الكريم يتحدثون عن مسألة مهمة، وتعدّ في الوقت نفسه أحد العوامل الأساسية في فهم القرآن الكريم ألا وهي(**المعرفة بأسباب النزول**). ولمكانة هذه الأخيرة فقد أفرد لها بعض علماء الإسلام مصنّفات كثيرة أشهرها مصنّفان اثنان: (**أسباب النزول**) للواحديّ النيسابوري و(**أسباب النزول**) لجلال الدين السيوطي.

1 – مفهوم أسباب النزول:

ويمكن تعريف أسباب النزول بأنها « الواقعة التي نزلت بعدها الآية أو الآيات أو هي المناسبة التي كانت سببا في نزول الآية أو الآيات الكثيرة». فقد يعرض سؤال على النبي – صلى الله عليه وسلم – بقصد معرفة الحكم الشرعي فيه، أو الاستفسار عن أمر من أمور الدين فتنزل الآية أو الآيات الكريمات إجابة عن هذا السؤال أو توضيحا لهذه المسألة المهمة من الدين. ويمكن أن نضرب لذلك بمثالين.

أما المثال الخاص **بالإجابة عن السؤال** فهو ما رواه معاذ بن جبل – رضي الله عنه – أنه قال: يا رسول الله: إن اليهود تغشانا، ويكثرون مسألتنا عن الأهلة، فما بال الهلال يبدو دقيقا ثم يزيد حتى يستوي ويستدير حتى يعود كما كان؟ فأنزل الله : « يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج».

أما المثال الخاص بتوضيح **مسألة مهمة من الدين** أو بيان حكم شرعي، كأن يكون هذا الأخير حدّا من حدود الله في القصاص أو الظهار أو اللّعان بين الزوجين مثلا؛ فقد أخرج البخاري عن ابن عباس – رضي الله عنه – أن هلال بن أميّة قذف امرأته عند النبي – صلى الله عليه وسلم – بشريك بن سمحاء، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم –: « البيّنة أو حدّ في ظهرك»، فقال يا رسول الله: إذا رأى أحدنا مع امرأته رجلا ينطلق يلتمس البيّنة، فجعل النبي – صلى الله عليه وسلم – يقول: « البيّنة أو حدٌّ في ظهرك ». فقال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، ولينزلن الله تعالى ما يبرئ ظهري من الحد، فنزل جبريل، وأنزل الله عليه:« "والذين يرمون أزواجهم" حتى بلغ "الصادقين"».

2 – فوائد معرفة أسباب النزول:

ولما كانت المعرفة بأسباب النزول علما جليلا من الدين تتوقف عليه فهم معاني القرآن ومعرفة الحدود والأحكام والكشف عن أسرار التشريع، فقد بيّن قيمته بعض العلماء ممّن وقفوا على ذلك؛ فقد قال الواحدي النيسابوري: « لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها». وقال ابن دقيق العيد: « بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن».وقال ابن تيمية: « معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب».

ويمكن تلخيص فوائد معرفة سبب النزول في الأمور الآتية:

2 – 1 – معرفة وجه الحكمة الباعثة على التشريع:

أشكل على عروة بن الزبير – رضي الله عنه – معنى قوله تعالى: « إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ». فإن ظاهر هذه الآية الكريمة يشير إلى عدم وجوب السعي بين (**الصفا والمروة**) حتى قال عروة بن الزبير لخالته عائشة أمّ المؤمنين: يا خالة، إن الله تعالى يقول: " فلا جناح عليه أن يطوف بهما"، فأرى أنه لا بأس على الإنسان أن يترك السعي بينهما؟ فقالت له عائشة : بئس ما قلت يا ابن أختي !، لو كان الأمر كما ذكرت لقال الله تعالى: فلا جناح عليه ألا يطوف بهما». فوجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم أن الناس في الجاهلية كانوا يسعون بين الصفا والمروة، وكانوا يحجون في سعيهم **لصنمين**، أحدهما: على الصفا يسمّى (**إسافا**) والآخر على المروة ويسمّى (**نائلة**)، فلما دخل الناس إلى الإسلام تحرّج بعض الصحابة من السعي بينهما خشية أن يلتبس الأمر بعبادة الجاهلية، فنزلت الآية الكريمة تدفع عنهم الإثم والحرج وتوجب عليهم السعي بين الصفا والمروة لله تعالى لا للأصنام.

2 – 2 – دفع توهم الحصر فيما ظاهره الحصر:

ومن أمثلته ما روي عن الإمام الشافعي رحمه الله في قوله تعالى: « قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرّما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهلّ لغير الله به ». فقد قال ما معناه: إن الكفار لما حرموا ما أحلّ الله، وأحلوا ما حرم الله، وكانوا على المحادة والمضادة، فجاءت الآية مناقضة لغرضهم فكأنه قال: لا حلال إلا ما حرّمتموه، ولا حرام إلا ما أحللتموه، فلم يقصد حلّ ما وراءه، وإنما القصد إثبات التحريم لا إثبات الحل. فظاهر الآية الكريمة يدل على حصر المحرمات في هذه الأشياء المذكورة، وليس الأمر

كذلك، فإن هناك محرمات غير هذه، وإنما وردت الآية بصورة الحصر وليس معناها الحصر، للرّدّ على المشركين في تحريمهم ما أحل الله وتحليلهم ما لما حرّم الله.

2 – 3 – معرفة اسم من نزلت فيه الآية وتعيين المبهم فيها:

فقد زعم مروان بن الحكم أن قوله تعالى:« والذي قال لوالديه أفٍّ لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين». أنها نزلت في (**عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق**) فردّت عليه عائشة – رضي الله عنها – هذا الزعم الباطل وبيّنت له سبب نزولها، والقصة وردت في صحيح البخاري على النحو الآتي: « إن مروان كان عاملا على المدينة، فأراد **معاوية** أن يستخلف **يزيد** فكتب إلى مروان بذلك، فجمع مروان الناس فخطبهم، فذكر يزيد ودعا إلى بيعته، وقال: إن أمير المؤمنين أراه الله في يزيد رأيا حسنا، وإن يستخلفه فقد استخلف أبا بكر وعمر، فقل عبد الرحمن: **ما هي إلا هرقلية**(يعني أنها استبداد للملك كعمل ملوك الروم). فقال مروان: سنة أبي بكر وعمر. فقال عبد الرحمن: (هرقلية)...إن أبا بكر والله ما جعلها في أحد من ولده ولا أهل بيته، وما جعلها معاوية إلا كرامة لولده. فقال مروان: خذوه فدخل بيت عائشة فلم يقدروا عليه. فقال مروان: إن هذا الذي أنزل فيه :" والذي قال لوالديه أفٍّ لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي...». فقالت عائشة من وراء حجاب: ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن إلا أن الله أنزل عذري (**براءتي**) ولو شئت أن أسمّي من نزلت فيه لسميته».

2 – 4 – تخصيص الحكم بالسبب:

أشكل على (**مروان بن الحكم**) معنى قوله تعالى:« لا تحسبنّ الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم». فقال لخادمه: اذهب إلى ابن عباس فقل له: (لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذّبا لنعذّبن أجمعون). فبيّن له ابن عباس– رضي الله عنهما – ما أزل عنه الإشكال. وقال له: إن الآية نزلت في أهل الكتاب – اليهود – حين سألهم النبي – صلى الله عليه وسلم — عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره، أي أروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه فنزلت الآية».